

التحكيم



عبد الحميد بن عبد الوهاب



التحكيمة

تأليف

عبد الحميد جوده النجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَفَدَّ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ،
لَئِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . » (قرآن كريم)

١

دار القتال رهيبا في « صفّين » بين الإمام عليٍّ
ومعاوية ، وأحسن معاوية أن الغلبة لعليٍّ ، فأمر أهل
الشّام برفع المصاحف على الرّماح ، فاستقبل أهل الشّام
عليّا بتاتة مصحف ، ووضعوا في كلّ مُجَنَّبَةٍ مائتي
مصحف ، ثم قام رجال من أهل الشّام ونادوا :

— يا معشر العرب ، الله الله في نسائكم وبناتكم .

فمن للرؤوم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنيتم . هذا
كتابُ الله بيننا وبينكم .

وخدع أهل العراق ، فقالوا لعليٍّ :

— يا عليّ ، أجب القومَ إلى كتابِ الله ، إذ دُعيتَ
إليه ، وإلا قتلناكَ .

وقبلَ عليّ هذه الخديعة وهو كاره ، وجاءه أحدُ
الذين يُحبِّذونَ التحكيمَ من رجالِهِ ، وقال له :

— يا أميرَ المؤمنين ، ما أرى الناسَ إلا وقد رضُوا ،
وسرَّهم أن يُجيبوا القومَ إلى ما دعوهم إليه من حُكمِ
القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاويةَ ، فسألتُه ما يريد ،
ونظرتُ ما الذي يسأل .

— إيتِه إن شئتَ .

فأتاه فسأله ، فقال :

— يا معاوية ، لأيِّ شيءٍ رفعتم هذه المصاحف ؟

— لنرجِعَ نحنُ وأنتم إلى ما أمرَ اللهُ به في كتابِهِ ،

غابِثُوا منكم رجلاً ترضونَ به ، ونبعثَ منا رجلاً ، ثم

نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله ، لا يعدوانه ،
ثم تتبع ما اتفقنا عليه .
— هذا هو الحق —

وقال الناس :

— قد رضيانا بحكم القرآن .
وقال أهل الشام :

— فإننا قد رضيانا واخترنا عمرو بن العاص .
وقال بعض أهل العراق :

— فإننا قد رضيانا واخترنا أبا موسى الأشعري .
— إني لا أرضى بأبي موسى ، ولا أرى أن أوليّه ،
ولكن هذا ابن عباس أوليّه ذلك .
كان ابن عباس ابن عم عليّ ، لذلك قال بعض
أهل العراق :

— لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ،
نيس إلى واحدٍ منكما بأدنى منه إلى الآخر .
فقال عليّ :

— إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر حداً هو
أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح
للقرشى إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس ، فارموه
به ، فإنَّ عمرًا لا يعقدُ عقدةً إلا حلَّها عبدُ الله ، ولا
يحُلُّ عقدةً إلا عقدها ، ولا يُبرِّمُ أمرًا إلا تقضه ،
ولا ينقُضُ أمرًا إلا أبرمه .

فرفضوا ذلك وأبوه ، فقال عليٌّ في ضيق :

— قد أَيْتُمُ إلاَّ أبا موسى ؟

— نعم .

— فاصنعوا ما أردتم .

ذهب رجالُ الإمامِ إلى معاوية ، لكتابة وثيقة
الصلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضى عليه أميرُ المؤمنين . . »

فقال معاوية :

— بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنه أميرُ المؤمنين
ثم قاتلته .

وقال عمرو :

— اكتب اسمه واسمَ أبيه ، إنما هو أميرُكم ،
وأما أميرُنا فلا .

فخرج رجالُ الإمامِ إليه ، وأطرق علىَّ يفكر ،
فقال له أحدُ أنصاره :

— لا تمحُ اسمَ إمرةِ المؤمنين عنك ، فإنني أخوفُ

إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ، لا تمحها وإن قتل
الناس بعضهم بعضا .

فأبى عليٌّ أن يمحوها ، حتى جاءه بعض أهل العراق
وقالوا له :

— امح هذا الاسم .

فقال الإمام في حسرة :

— لا إله إلا الله ، والله أكبر ، سُنَّةٌ بِسُنَّةٍ ،

أما والله لعلّ يدي دار هذا الأمر يوم الحديبية ، حين
كتبت الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وشهيل بن عمرو » . فقال شهيل : لا أجيبك إلى كتاب
تسمى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أعلم
أنك رسول الله لم أقاتلك ، إني إذا ظلمتُك أن منعتك

أَنْ تَطُوفَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَكِنْ اكِتُبْ :
« مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ » أَجَبَكَ . فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا عَلِيَّ ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنِّي لِمُحَمَّدٍ
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَلَنْ يَحْوِيَ عَنِّي الرِّسَالَةُ كِتَابِي إِلَيْهِمْ مِنْ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَاكِتُبْ : مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ » .
فَالْيَوْمَ أَكْتُبُهَا إِلَى أَبْنَائِهِمْ كَمَا كَتَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى آبَائِهِمْ سُنَّةً وَمَثَلًا .

وَكُتِبَتْ وَثِيقَةُ الصُّلْحِ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ
أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَمَعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ،
قَدْ تَزَلَا عِنْدَ حُكْمِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ أَبُو مُوسَى
الْأَشْعَرِيُّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي الْقُرْآنِ حُكْمًا ، حَكَمَا
بِمَا يَجِدَانِ فِي السُّنَّةِ الْعَادِلَةِ غَيْرِ الْمَفْرَقَةِ ، وَعَلَى عَلِيٍّ
وَمَعَاوِيَةَ وَتَبِيعَتَيْهِمَا وَضَعُ السَّلَاحِ إِلَى انْقِضَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ ،

وهو، من رمضان إلى رمضان ، على أن يرجع أهل
العراق إلى العراق ، وأهل الشام إلى الشام ، وعلى أن
يكون الاجتماع إلى دومة الجندل .

ووقع على الوثيقة ، وقام رجل إلى الإمام علي
أمير المؤمنين ، وقال له :

— يا أمير المؤمنين ، ما إلى الرجوع عن هذا
الكتاب سبيل ؟ فوالله إني لأخاف أن يورث ذلًا .
فقال عليّ :

— أبعد أن كتبناه ننقضه ، إن هذا لا يحل .
وندِم أناس من أصحاب عليّ على قبول التحكيم ،
بعد فوات الأوان ، كما هي عادتهم ، فنادوا من كل
جهة ، وفي كل ناحية :

— لا حكم إلا لله ، الحكم لله يا علي لا لك ،

لا نرضى أن يحكم الرجال في دين الله ، إن الله
قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه ، أن يُقتلوا أو يدخلوا
في حكمنا عليهم . وقد كانت منا زلة حين رضينا
الحكمين ، فرجعنا وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا
وتب إلى الله كما تبنا ، وإلا برئنا منك .

ما كان علي ممن ينقض عقدا ، فقال لهم :

— ويحكم ! أبعد الرضا والميثاق نرجع ، أوليس
الله تعالى قال : « أوفوا بالعقود » . وقال : « وأوفوا بعهد
الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد
جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » . وأبى
علي أن ينقض عهده ، وأبى هؤلاء الرجال إلا أن يخرجوا
عاهه ، ولذلك سُموا « الخوارج » وعاد الإمام إلى الكوفة ،
وفارقه الخوارج .

اجتمع عمرو وأبو موسى في دومة الجندل ، وحضر
الناسُ لِيَسْتَمِعُوا قَوْلَ الرَّجُلَيْنِ ، فقال عمرو لأبي موسى :
— يا أبا موسى ، إن قال قائلٌ إنَّ معاويةَ من الطلقاء
(الذين عفا النبيُّ عنهم بعد فتح مكة) وأبوه رأسُ الأحزاب ،
لم يبايعه المهاجرون والأنصار فقد صدق ، وإذا قال إنَّ عليًّا
أوى قتلةَ عثمان ، وقتل أنصاره يوم الجمل ، وبرز على أهلِ
الشَّامِ بِصِفِّينَ فقد صدق ، وفينا وفيكم بقيَّة ، وإن عادتِ
الحربُ ذهب ما بقي ، فهل لك أن نخلمهما جميعا ، ونجعل
الأمرَ لعبدِ الله بنِ عمر ، فقد صحبَ رسولَ الله صلى الله
عليه وسلم ، ولم يبسط في هذه الحربِ يدا ولا لسانا ،
وقد علمتَ من هو ، مع فضله وزُهدِهِ ووَرَعِهِ وعِلْمِهِ .
كان أبو موسى لا يعدلُ بعبدِ الله بنِ عمرَ أحدا ،

لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه من أييه ،
فقال مسرورا :

— جزاك الله بنصيحتك خيرا .

واجتمع رأيهما على ذلك ، فقاما أمام الشهود ،
فقال عمرو :

— يا أبا موسى ، ناشدتك الله تعالى ، من أحق
بهذا الأمر ، من أوفى أو من غدر ؟
— من أوفى .

— يا أبا موسى ، ناشدتك الله تعالى ، ما تقول
في عثمان ؟

— قُتل مظلوما .

— فما الحكمُ فيمن قتل ؟

— يُقتل بكتاب الله تعالى .

— فمن يقتله ؟

— أولياء عثمان .

— فإنَّ الله يقول في كتابه العزيز : « ومن قُتِلَ
مظلوماً فقد جعلنا لولِيِّه سلطاناً » ، فهل تعلمُ أن معاويةَ
من أولياء عثمان ؟

— نعم .

قال عمرو للقوم :

— اشهدوا .

فقال أبو موسى للقوم :

— اشهدوا على ما يقولُ عمرو . قم يا عمرو ، فقل
وصرِّح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك ، وما اتفقنا عليه .
فقال عمرو في دهاء :

— سبحان الله ! أقومُ قبلك وقد قدَّمَكَ الله قبلي
في الإيمانِ والهجرة ، وأنت وافدُ أهلِ اليمنِ إلى رسولِ الله ،
ووافدُ رسولِ الله إليهم ، وبك هداهم الله وعرفهم شرائعَ

دينه وسنة نبيه ، وصاحب مقام أبي بكر وعمر ، ولكن
قم أنت فقل ، ثم أقوم فأقول .

فقام أبو موسى فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
— إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وإنني لا أهلك
ديني لصالح غيره . إن هذه الفتنة قد أكلت العرب ،
وإنني رأيت وعمرًا أن نخلع عليًا ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله
بن عمر ، فإنه لم يبسط في هذه الحرب يدًا ولا لسانًا .
ثم قام عمرو وقال :

— إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا
أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه
ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والطالب بدمه ،
وأحق الناس بمقامه .

فقال أبو موسى في غضب :

— مالك ، لا وفَّقك الله ، غدرتَ وفجرتَ ، إنما
مثلكَ كمثلِ الكلبِ إن تحمِلَ عليه يلهثُ أو تتركه يلهث .
فقال له عمرو :

— إنما مثلكَ كمثلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً .

٤

وبلغ الإمامَ خديعةَ عمرو لأبي موسى ، فقام في
الكوفة ، فخطبَ الناسَ ، فقال :

— أَلَا إِنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرْتُمُوهُمَا حَكَمَيْنِ
قد نبذا حكمَ القرآنِ وراءَ ظهورِهما ، وأَحْيَا ما أَمَاتَ
القرآنُ ، واتبَعَ كلُّ واحدٍ منهما هواه بغيرِ هُدًى من الله ،
فحكَمَا بغيرِ حِجَّةٍ يَدَّعِيانِ ، ولا سُنَّةٍ ماضيةٍ ، واختلفا في
حكَميهما ، وكلاهما لم يرشُدْ ، فبرِئَ اللهُ منهما ورسولُهُ
وصالحو المؤمنين . استعِدُّوا وتأهبوا للمسيرِ إلى الشام .

وكتب إلى الخوارج أن يوافوه ليسيروا معه لقتال معاوية ، ولكن الخوارج رفضوا ، وأراد الإمام أن يسير بأهل العراق إلى أهل الشام ، ولكن أهل العراق لم يُطيعوه ، بل طلبوا منه أن يقاتل الخوارج ، فسار حتى نزل المدائن ، والتقى بالخوارج عند النهروان ، ودارت بينه وبينهم معركة رهيبة ، وانتصر الإمام عليهم ، ثم سار بالناس حتى نزل بالأنخيلة ، فمسكروا بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه عسكرهم ، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد ، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام ، فأقاموا معه أياما ، ثم رجعوا يتسَلَّون ويدخلون الكوفة ، وتركوا عليا وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، فأطرق الإمام حزينا ، فقد تيقن أن أنصاره قد انفضوا من حوله .